

نضال النخب التونسية من أصول جزائرية في المهجر من خلال وثائق الأرشيف

الفرنسي والألماني. "الشيخ صالح الشريف التونسي أنموذجاً" (1869-1920)

The struggle of Tunisian elites of Algerian origin in the diaspora Through the documents of the French and German archives.

"Sheikh Saleh Cherif al-Tunisi is a model" (1869-1920)

* مولود قرين

جامعة المدينة- الجزائر mouloudgrine@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2022/11/06 ؛ تاريخ القبول : 2023/01/01 ؛ تاريخ النشر : 2023/01/31

الملخص

عالج المقال أحد الشخصيات التونسية من أصول جزائرية وهو "الشيخ صالح الشريف التونسي"، الذي ارتبط اسمه بفكرة الجامعة الإسلامية في وقت مبكر، وبالحرب الإيطالية العثمانية في طرابلس الغرب منذ 1911م، وبنشأته الدؤوب خلال الحرب العالمية الأولى في برلين ثم سويسرا. إذ يعد صالح الشريف من أقطاب الدعاية إلى الجهاد خلال الحرب العالمية الأولى، وذلك من خلال الخطب والمحاضرات التي كان يلقيها على أسرى الحرب في برلين أو من خلال الكراسات والمناشير التي كان يكتبها ويوزعها على المسلمين، لذلك ستحاول هذه الدراسة رصد نشاط الشيخ "صالح الشريف" وتحليل بعض أفكاره من خلال بعض من منشوراته اطلعنا عليها في الأرشيف الفرنسي والأرشيف الألماني (مركز الدراسات الشرقية ببرلين)..
الكلمات المفتاحية: صالح الشريف التونسي، الدعاية الألمانية العثمانية، لجنة استقلال تونس والجزائر، النخب المغاربية

Abstract

The article deals with one of the Tunisian figures of Algerian origin, Sheikh Saleh Cherif al-Tunisi, whose name was associated with the idea of the Islamic University early, the Italian-Ottoman War in Tripoli in the West since 1911, and his tireless activity during the First World War in Berlin and then Switzerland. He is one of the poles of propaganda for jihad during the First World War, so this study will try to monitor the activity of Sheikh Saleh al-Sharif and analyze some of his ideas through some of his publications that we have seen in the French and German archives (Center for Oriental Studies in Berlin).

Keywords : Sala Cherif al-Tunisi ; German- Ottoman propaganda; Committee for the Independence of Tunisia and Algeria, Maghreb elites

مقدمة :

حضيت شخصية "صالح الشريف التونسي" بدراسات كثيرة أعدها مؤرخون تونسيون وأجانب، لعلّ أبرزهم "عبد الجليل التميمي" من خلال مقاله: "من أعلامنا البارزين المنسيين"، و"حمادي الساحلي" من خلال دراسته "نشاط الوطنيين التونسيين في المهجر أثناء الحرب العالمية الأولى"، وكتاب "نزار دلهومي": "الشيخ صالح الشريف التونسي والدعاية الألمانية"، والمؤرخ الألماني "بيتر هاينه" في محاضراته التي نشرت في الكثير من المجلات بعنوان: "صالح الشريف التونسي قومي من شمال إفريقيا في برلين أثناء الحرب العالمية الأولى".

غير أن فكر الشيخ، وجهوده النضالية لا يزال في حاجة ماسة إلى مزيد من البحث والتقصي، والتمعن في ما أنتجه من أدبيات سواء باللغة العربية أو باللغة الألمانية، خاصة وأن رصيده الفكري والنضالي لازال في دور الأرشيف في البلاد التي نشط فيها، كدور الأرشيف التونسية، والتركية، والليبية، والألمانية، والفرنسية، وحتى السويسرية. لذلك ستحاول هذه الدراسة رصد نشاطه من خلال ما وجدناه من وثائق في أرشيف آكس أون بروفانس بفرنسة ملف 9H5.6 وما اطلعنا عليه من منشورات وصور ومقالات في مركز الدراسات الشرقية ببرلين، وما يجب الإقرار به هو أن مركز الدراسات الشرقية ببرلين يتضمن رصيذا كبيرا يؤرخ لنشاط "صالح الشريف" والكثير من النخب العربية في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، غير أن الاستفادة من هذا الرصيد يوجب معرفة عميقة باللغة الألمانية – وهذا ما لم يتوفر لدينا حاليا- لذلك اقتصرنا على بعض منشورات صالح الشريف بالعربية وبالفرنسية التي كتبها سنة 1917م.

1- تعريف مقتضب للشيخ صالح الشريف التونسي: (1869-1920):

ينحدر الشيخ "صالح الشريف" من أصول جزائرية من (بجاية)، هاجرت عائلته بعد احتلال الجزائر إلى تونس، ولد سنة 1869م، درس في جامع الزيتونة، وتحصل على الشهادة التطويع سنة 1888م، وأصبح أستاذا لامعا في ذات الجامع سنة 1893م، لذلك عين كعضو في لجنة إصلاح نظام التعليم بجامع الزيتونة (Brdin, 1979, p.191).

هاجر من تونس بدعوى أداء فريضة الحج في أكتوبر 1906م، توجه أولاً إلى دمشق ثم انتقل إلى الأستانة. وكان من أشد المدافعين على فكرة الجامعة الإسلامية، لاعتقاده التام أنه لا خلاص للشعوب العربية الإسلامية من الاستعمار إلا في إطار الجامعة الإسلامية (الساحلي، 1984، ص 184). فكان واعياً بحجم الأخطار التي كنت تمر بها الدولة العثمانية والعالم الإسلامي، ومدركاً في نفس الوقت للأطماع التوسعية الفرنسية والإنجليزية في العالم العربي والإسلامي (التميمي، 1981، ص 355).

عين سنة 1908م أستاذا للحديث في مسجد "السلطان أحمد" باستنبول، وبعد الإطاحة بالسلطان "عبد الحميد الثاني" سنة 1908م، أصبحت له علاقات وطيدة مع حكومة "الاتحاد والترقي"، خاصة مع وزير الحربية العثماني "أنور باشا" الذي أخذه معه سنة 1911م في الحرب الطرابلسية لدعوة المغاربة إلى الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي، ليعين فيما بعد كمستشار لأنور باشا في شؤون المغرب العربي (Brdin, 1979, p.194).

2- نشاطه الفكري والجهادي في دمشق واستنبول وطرابلس الغرب :

وجد الشيخ "صالح الشريف" المناخ ملائماً في كل من "دمشق" و"إسطنبول"، فبدأ يلقي الخطب والمحاضرات، ويدعوا المسلمين إلى الاتحاد تحت ظل الخلافة العثمانية، واتسمت محاضراتها ومناقشاته ببعدها السياسي، وهذا ما أدخله في صراع مع السيد "رشيد رضا" صاحب مجلة "المنار"، ويروي المؤرخ "بيتر هاينه" سبب الخلاف، هو "أن رشيد رضا رأى شيخاً من شمال إفريقيا في المسجد الأموي، ولم يكن لهذا الشيخ عدد كبير من طلبة العلم. وبعد محاضرة لرشيد رضا دارت مناقشة حولها، وكان صالح شريف واحد من المناقشين. ويعلق رشيد رضا على ذلك بأن صالح شريف كان واحداً من الذين يعلقون خارج موضوع المحاضرة، وقد حاول صالح شريف توريط رشيد رضا في مناقشة موضوعات ذات طبيعة سياسية، وأن صالح شريف كان واحد من أتباع الطريقة الرفاعية أبي الهدى الذي كان على علاقة وطيدة بالخليفة عبد الحميد، غير أن الحقيقة هي أن صالح شريف كان على علاقة مع تركيا الفتاة التي تكره عبد الحميد" (هاينه، 1985، ص 103).

أما في "إسطنبول" فقد كان عضواً فاعلاً في الجمعية الخيرية الإسلامية التي يرأسها "محمود شوكت باشا"، ومن بين أعضائها إلى جانب "صالح الشريف"، "إسماعيل الصافيحي" (1853-1918)، و"عبد العزيز جاويش"، ومن بين أهدافها الرئيسية الترويج لدعاية الجامعة الإسلامية (التليلي، 2005، ص 202). وقد كانت هذه الجمعية حسب تقارير الإدارة الفرنسية تابعة متصلة - هاتفياً - بوزارتي الداخلية والشؤون الخارجية للباب العالي، وأن الدولة تمنحها سنوياً إعانة مالية قدرها 5.600.000 ريال، وحسب ذات المصادر فإن ألمانيا كذلك كانت تساهم في مصاريف الجمعية بـ 10.000.000 ريال (التليلي، 2005، ص 202).

وفي إسطنبول كذلك كلف باستقبال المهاجرين المغاربة وتنظيمهم، وتأطيرهم فكرياً وتحريضهم على العدو (دلهمي، 2018، ص 92). وفي هذا الإطار أسس في 15 أوت 1910م رفقة الشيخ "إسماعيل الصافيحي" والفرنسي المسلم "تادي قاستاوت" (Thadeé gasztowt) "جمعية الأخوة"، أعلنت أن هدفها هو مساعدة وتشجيع التونسيين والجزائريين على الهجرة إلى الدولة العثمانية، وقد كان للجمعية عدة فروع أهمها فرع دمشق الذي كان يضم عدد من جزائريين أمثال: "الشيخ الحسين" و"محمد بن صغير" من سدراتة، "والدراجي بن الحسين" و"الحاج اسماعيل بن محمد" من قسنطينة (A.N.T, SERIE : E, Carton, 550,D30 /15, 1908-1915).

في تركيا توطدت علاقة "صالح الشريف" بالشباب التركي لذلك اختاره "أنور باشا" ضمن الشخصيات الفاعلة في اللجنة السرية التي عرفت باسم "تشكيلاتي مخصصة" وهي منظمة عسكرية سرية استخباراتية أسسها "أنور باشا" بهدف تقويض أركان الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، وقد استغل "أنور باشا" الحماس الجهاد عند الكثير من الشخصيات الإسلامية أمثال: "محمد بن عبد الكريم الخطابي" (1882-1963م)، و"الأمير علي بن الأمير عبد القادر" و"عبد العزيز جاويش"، والشيخ "صالح شريف التونسي" وغيرهم لتحقيق مرامي وأهداف "تشكيلاتي مخصصة" (عبد المولى، 1979، ص 18).

يبدو أن دور صالح الشريف في "طرابلس الغرب" كان إلى جانب "الأمير علي بن الأمير عبد القادر" في شحذ همم المجاهدين، وتوعيتهم بما يحكيه العدو، فهذه الوظيفة كانت من أهم الوظائف حسب ما ذكره الأمير علي:

"إن أهم وظيفة لدي في كل يوم هي إلقاء النصائح والإرشادات، وتحسيس المجاهدين بما أسرده على أسماعهم من أقوال السلف الصالح، وقد جعلتهم يفهمون ما يضمّره العدو" (نخبة من الكتاب، 1918م، ص 49).

3- نشاطه الدعائي في برلين خلال الحرب العالمية الأولى:

نتيجة لإيمان الشيخ بالجهاد، وفكرة الجامعة الإسلامية " أرسل صحبة "الأمير علي" عند اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى ألمانيا لينشر الدعاية الألمانية العثمانية بين الأسرى المسلمين خاصة أبناء المغرب العربي منهم، وكان "صالح الشريف" من أشهر الشخصيات العربية التي تعمل مع مكتب المعلومات الخاصة بالشرق بوزارة الخارجية الألمانية (Nachrichtenstelle für der Orient) (دلهمي، 2018، ص 110).

ومنذ وصوله إلى برلين أواخر 1914م، وهو يعمل مجتهدا من أجل الدعاية لفكرة الجهاد، واغتنام فرصة الحرب العالمية الأولى للتحرر من الاستعمار الغربي خاصة الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، ولأجل ذلك ألف الكثير من المنشورات والكتيبات باللغة العربية نشرت بين المجندين في الجبهة الغربية للحرب. فكان للشيخ دورا كبيرا في الترويج لفكرة الجهاد بين الأسرى المسلمين في معسكر "الهلال" الذي أنشأته ألمانيا خصيصا للمسلمين حتى تغسل أدمغتهم وتجندهم ضد فرنسا وإنجليز (قرين، 2022، ص 61)، فكان يلقي الخطب الحماسية، ويوزع بينهم المنشورات، ولعب دورا كبيرا في تأسيس جريدة "الجهاد"، ويذكر المؤرخ "بيتر. هاينه" (P. Heine) أن "صالح الشريف كتب فيها العديد من المقالات (Heine, 1982, p91)، غير أننا وجدنا له مقالا واحدا فقط بعنوان: "فرنسا وذهب المراكشيين" نشرت في العدد 16 يوم 31 أوت 1915م.

والمطالع لمختلف كتابات صالح الشريف ومنشوراته خلال الحرب العالمية الأولى، يلاحظ لا محالة أنها تمحورت حول الدعوة إلى الجهاد ومساندة الدولة العثمانية وألمانيا في حربها ضد دول الوفاق، وكذلك محاولته فضح السياسة الاستعمارية لدول الوفاق خاصة سياسة فرنسا في المغرب العربي، وإنجلترا في مصر.

ومن أشهر ما كتبه كراسة دعائية بعنوان: "الجهاد فريضة مقدسة" طبع في إسطنبول في نوفمبر 1914م في خمسين ألف نسخة، دعا فيه المسلمين إلى الجهاد، مستشهدا بكثير من الآيات القرآنية التي تحث المسلمين على مقاتلة الكفار، فكتب في صفحة الغلاف الخارجي، قوله تعالى: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ) (التوبة، الآية 05). وقوله كذلك: (فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ يُنتَهُونَ) (التوبة، الآية 12) (الفرجاني، 2016، ص 104).

وفي كراسه الدعائي يرجع الشيخ "صالح الشريف" تخلف المسلمين إلى تخاذلهم، وانشغالهم بخلافاتهم الداخلية، مما جعلهم لقمة صائغة في فم العدو، داعياً إياهم إلى الوحدة، وتجسيد معنى الأخوة، و "الوقوف صفا واحدا يشد فيه المسلمون بعضهم ذراعا بذراع حتى يصبحوا كتلة واحدة تتحرك بكلمة واحدة وقلب واحد، فيهبّو جهاد عام يفرض فيه على كل المسلمين شيئا وشبابا حمل السلاح والإسراع بمباشرة التدريب العسكري لاكتساب الخبرة" (الفرجاني، 2016، ص 104).

فابتعاد المسلمين عن دينهم، وعدم أخذهم بأسباب القوة، جعلهم رغم أكثرتهم خاضعين لقوى الاستعمار الأوروبي التي تطورت في كل الميادين والمجالات، والحلّ الوحيد في نظره لاسترجاع المجد هو انخراطهم في الجهاد، لذلك اعتبر أن "قتل واحد من الكفار المتسلطين يعدّ إحياء للإسلام" (الفرجاني، 2016، ص 104).

لقد ذهب "صالح الشريف" إلى أبعد من ذلك، فألزم كل مسلم أن يقسم بأن يقتل ثلاثة أو أربع كفار وسيكون جزاؤه عظيم أعظم من أجر صيام رمضان، وسينقذه الله من خوف يوم الحساب، يوم البعث الأكبر". ولتحميس المسلمين أكثر كتب قائلاً: "... دعونا نحمل سيوفنا في أيماننا، والبنادق في يسرانا، ونملاً جعبنا بالرصاص المتفجر، وقلوبنا بالأيمان بالله، ثم نهتف: مراكش للمراكشيين ... تونس للتونسيين، مصر للمصريين وليصبح هذا النداء شعاراً لكل مسلم يجب عليه أن يضحي بالغالي والنفيس من أجل تحقيقه " (الفرجاني، 2016، ص 106-107).

بعد أن دعا "صالح الشريف" المسلمين إلى الثورة على مستعمرهم وحمل السلاح، ضدهم، عمل في مرحلة ثانية على تحريضهم على العصيان وضرب المصالح الاقتصادية للبلدان الاستعمارية والدعوة الصريحة إلى مساندة الدولة العثمانية وذلك ب:

-مقاطعة شراء أي شيء من الكفار حتى ولو كان تافه القيمة.

-رفض الامتثال لأوامر الكفار الذين يحكمون المسلمين.

-الامتناع عن دفع الضرائب.

-ارسال المسلمين لإعانة مالية وخيرية إلى عاصمة الخلافة العثمانية (الفرجاني، 2016، ص 107).

يوضح الشيخ "صالح شريف" أن وجوب الجهاد لا يكون إلا ضد الكفار المعتدين، مستثني القوي المسيحية الموالية للمسلمين، وهو بذلك يريد الإشارة إلى ألمانيا، وهذا ما شرحه أكثر في كتيبه الآخر "حقيقة الجهاد"، الذي جاء تكملة للكراس الدعائي الأول، وترجم من طرف المستشرقين الألمانين: (Karl Schabanger و (VonSchowingen (Martin Hartmann) سنة 1915 م (Heine, 1982, p89).

حاول الشيخ "صالح الشريف" من خلاله إيجاد انسجام فكري بين مسيحية الألمان كونهم غير مسلمين والتحالف العثماني القائم آنذاك، إذ يطرح فيه تساؤلاً مركزياً حول حقيقة الجهاد والمغزى منه، ويجيب الشيخ بأن الجهاد في الإسلام هو: "بذل الطاقة والقوة البشرية بكاملها لمححق أعداء الإسلام بالنفس والنفس وليس المقصود بأعداء الإسلام كل الكافرين، بل فقط أولئك الذين يحاربوننا ويشردوننا مثل الروس والإنجليز ومن يقف معهم" (دهومي، 2018، ص 110).

فهو من خلال كتيبه لا يستثني ألمانيا من دائرة أعداء المسلمين فحسب، بل يعتبرهم أصدقاء للمسلمين، ففي نظره "أن هاته الوحدة بين قوات مسلمة وجيوش ألمانية مسيحية راجع لمتطلبات الظرفية وضرورة التحالف في النزاع الدولي" (دهومي، 2018، ص 110).

ومن منشوراته الدعائية كذلك محاضرة مطبوعة كان قد ألقاها في "دمشق" في 8 جمادي الثانية 1333هـ/ 23 أبريل 1915م تحت عنوان: "مرارة الاحتلال" جاءت في 16 صفحة، تعرض فيها لمختلف الممارسات والجرائم الاستعمارية في تونس والجزائر، قسمها إلى خمسة محاور، وهي الاعتداء على الدين الإسلامي، واعتدائها على الأموال، وعلى الفكر والعلم، وعلى الوظائف (A.N.O.M: 9H5.6).

فمنذ أن وطأت أقدام المستعمر أرض الجزائر وتونس حاربت الدين الإسلامي، وصادرت أوقافه، ودنّست مؤسساته، وشردت علمائه، وحاربت شعائره خاصة الحج، فكانت حسب قوله: "...تصدّ الناس عن فريضة الحج في أكثر السنين، وإنما تسمح لهم بالسفر في السنة العجفاء حتى تكون العسرة ..." (A.N.O.M: 9H5.6).

أما اعتداؤها على الأموال، فيتمثل في سياسة التمييز والتفجير والقضاء على مصادر العيش الكريم، فأثقلت كواهل المسلمين بالضرائب، عكس الأوروبيين الذين استوطنوا عنوة، وأصبحوا من أكبر الأغنياء بعد مصادرة أملاك المسلمين (A.N.O.M: 9H5.6).

وفي محور الاعتداء على الفكر والعلم، يقول: "... ففي الجزائر أصبح الجهل ضارباً أطنابه في المدن والقرى، وانقلب لسانهم إلى لغة فرنسية قائمة على آثار من العربية وبقيّة مما ترك آل البربرية...". أما الوظائف خاصة السامية منها فهي حكر على الفرنسيين والمعمّرين فقط (A.N.O.M: 9H5.6).

ومن المنشورات التي حرّرها الشيخ "صالح الشريف التونسي"، منشور بعنوان: "بريطانيا العظمى وهذيانها الفعلي والقولي في حق الخلافة الإسلامية"، وهو منشور ردّ من خلاله على أحد الوزراء الإنجليز وهو "المستر لويّد زورز" الذي أنكر أحقية العثمانية في الخلافة، وأن لا وجود لنظام الخلافة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلّم، فردّ عليه صالح شريف بأن الله أوجب على المسلمين في كل الأوقات أن يختاروا خليفة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو خليفته عن الله لإقامة كل ما كان قائماً به من السياسة والإرشاد وإقامة العدل والاستعداد الحربي، وواجب كل فرد من أفراد الأمة طاعته والدخول تحت رايته. وبعد سقوط الخلافة العباسية، وتفكك العالم الإسلامي، يقول صالح الشريف: "...سخّر الله دولة آل عثمان العظمى، وأحد سلاطينهم، السلطان سليم الأول ... وجمعوا شمل الإسلام باسم الخلافة واعترف لهم العالم الإسلامي بذلك في مشارق الأرض ومغاربها ..." (A.N.O.M: 9H5.6).

ويوضح بأن الإنجليز والمتحالفين معهم يعملون من أجل القضاء على الخلافة في الإسلام التي هي الجامعة العظمى والرابطة الكبرى له وأقدس شيء في نظره "لتتوصلوا إلى مطامعكم الساقطة واحتراصاتكم الشخصية". ويقول مخاطباً الوزير الإنجليزي: "... واعلم أيضاً أنه ما بقي أحد من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلا واعترف بالخلافة العظمى خلافة آل عثمان ورغب في الانضمام إليها، انضماماً فعلياً بالنفس والمال وتمام الإخلاص ..." (A.N.O.M: 9H5.6).

وفي إطار الدفاع عن الخلافة العثمانية كذلك كتب منشوراً بعنوان: "شرح دسائس الفرنسيين ضد الإسلام وخليفته"، وهو عبارة كراس من الحجم الصغير، جاء في عشرين صفحة، ردّ فيه "صالح شريف" على مقال بعنوان

"الإسلام والحرب"، نشر بجريدة Le Matin في 10 نوفمبر 1915م. دافع في مشوره عن أحقية العثمانيين بالخلافة الإسلامية، وأن السلطان العثماني قد توفرت فيه كل الشروط الشرعية لتولي منصب الخليفة، فحسب قوله فإن الخلافة انتقلت إلى "آل عثمان بالقانون الشرعي، وتسلفت في عقهم بطريق الوصاية الشرعية إلى أن انتهت إلى مولانا السلطان الغازي أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين محمد رشاد الخامس" (الفرقاني، 2016، ص 109).

كما نشر كتاباً مفتوحاً إلى السلطان المغربي "مولاي يوسف"، يدعو فيه إلى الجهاد، خاصة بعد أن منّ الله، حسب، على المسلمين "بإعلان أمير المؤمنين السلطان العثماني الجهاد في سبيل الله، واتفاقه مع جلالة إمبراطور ألمانيا ومحالفته المحالفة الأبدية المبنية على تمام الصدق والإنصاف والاشتراك في المنافع مع الأمة عظيمة الشأن ألمانيا، فلم يبق لكم عذر بوجه من الوجوه مع الله ولا مع خلق الله في هذا الاستغراق في الجهل والغفلة عن أحوال الحال والمستقبل والإنخداع للجنرال "ليوتي" وتعزيراته وتهديداته وشعوذته" (A.N.O.M: 9H5.6).

وإلى جانب خطبه ومحاضراته ومنشوراته المختلفة حاول الشيخ "صالح شريف" استغلال مكانته وعلاقاته الرفيعة المستوى من أجل إقامة مشروع "جمهورية شمال إفريقيا"، فاتفق مع المهاجرين المغاربة في اسطنبول والشام، ومع بعض الوطنيين الناشطين في الخارج، ومعهم زعماء الجهاد في ليبيا، لتشكيل جمهورية تجمع كل من ليبيا وتونس والجزائر ومراكش، وتزعم هذه الحركة الشيخان "شريف صالح" و "إسماعيل الصفائي"، وتنفيذا لهذه الخطة تم تركيز جبهة قتالية مسلحة بالجنوب التونسي سنة 1915م، غير أن هذه الحركة لم تتمكن من النجاح بسبب عدم وفاء كل من ألمانيا والدولة العثمانية بوعودها في تقديم الدعم اللازم للمجاهدين في الجنوب التونسي (دلهومي، 2018، ص 100).

4- تأسيسه للجنة استقلال الجزائر وتونس:

في إطار تنظيم العمل وتأطيره أسس رفقة "إسماعيل الصفائي" "لجنة استقلال الجزائر وتونس" (Comité d'indépendance de L'Algérie -Tunisie)، إذ يذكر تقرير فرنسي أن اللجنة أسست من طرف مجموعة من الشيوخ الجزائريين والتونسيين، يتميزون بنفوذهم وتأثيرهم الكبير، وأصحاب المبادرة، هما الشيخان: "صالح الشريف التونسي"، و "إسماعيل الصفائي" اللذان دعيا إلى الاجتماع التأسيسي الذي كان يوم الجمعة 7 جانفي 1916م على الساعة الخامسة في فندق "إسبلاناد" (Esplanade) ببرلين، وذلك من أجل التحضير لتأسيس لجنة تعمل على استقلال كل من الجزائر وتونس، وعقد الاجتماع في ذات اليوم وترأسه الشيخ "صالح الشريف التونسي"، وحضره القنصل التركي بألمانيا، وشخصيات ألمانية، إضافة إلى ضباط أترك. وكل في الأخير بتأسيس اللجنة واختيار، الشيخ صالح الشريف التونسي رئيساً لها (A.N.O.M: 9H5.6).

تمثلت مهمة اللجنة في كتابة المنشورات الدعائية، والتنسيق بين النخب المغاربية في المهجر من أجل تشكيل جبهة مشتركة بهدف تحقيق استقلال الأقطار المغاربية. وقد أصبحت اللجنة إطاراً سياسياً معترف به دولياً، باسمها كانت توجه الدعوات إلى الشيخين "صالح الشريف" وإسماعيل الصفائي لحضور الندوات

والمؤتمرات والدولية (الدلهومي، 2021، ص 243). وبواسطتها كان يتواصل مع أعلى مستويات القيادة الألمانية مناشداً إياها بتقديم العون والمساعدة لتحقيق الاستقلال، ففي حفل نظم على شرفه مع قيصر ألمانيا وحضر هذا الحفل "إسماعيل الصفايحي"، و"السفير التركي"، والأمير "علي باشا"، طلب "صالح الشريف" من القيصر المساعدة في تحقيق الاستقلال. كما راسله باسم اللجنة بأن تقدم دول المركز ضمانات من أجل الاستقلال المستقبلي لأقطار المغرب العربي، وقد تم تسجيل قضية "جمهورية شمال إفريقيا"، في لاهاي (بلقاسم، 2013، ص 89).

ومن نشاطات اللجنة مشاركتها في أشغال "المؤتمر الثالث للقوميات" المنعقد بلوزان بتاريخ 27 جوان 1916، وقد ترأس الوفد "صالح الشريف" و"إسماعيل الصفايحي"، وقدما عريضة مطالب الشعب الجزائري-التونسي، تضمنت العريضة شرحاً للوضعية المزرية التي يعيشها الشعبين، في ظل نظام تعسفي "مبني على الجور والإرهاب". ومن بين المطالب التي تضمنه العريضة، احترام حرية الإنسان وأملاكه، وإزالة القوانين التعسفية، وإجبارية التعليم باللغة العربية، وبكلمة موجزة حسب ما جاء في العريضة "نحن نطالب بالحق المشترك للجميع وبالحرية والعدالة" (بلقاسم، 2013، ص 87).

غير أن ألمانيا لم تف بوعودها، ولم تخطوا بخطوة عملية، لذلك أدرك "صالح الشريف" أن لألمانيا ولدول المحور وحتى لتركيا خطوط لا يمكن تجاوزها، لذلك راح يعتمد على نفسه، ويبحث عن قوى أخرى تساعد في تحقيق مشروعه، وهذا ما نلمسه في مشاركتها في مؤتمر الشعوب المضطهدة الذي انعقد في صائفة 1917م بمدينة "ستوكهولم" بالسويد، ومؤتمر آخر عقد في ذات المدينة في أكتوبر 1917م، وهو مؤتمر الشعوب الإسلامية (بلقاسم، 2013، ص 89). وفي المؤتمرين قدم "صالح الشريف" بسم لجنة استقلال تونس والجزائر مجموعة من المطالب ضمن مشورين، واحد بعنوان: "المظالم في تونس والجزائر"، (Les Doléances de la Tunisie et L'Algérie)، ومنشور آخر بمثابة نداء واستغاثة للنظر في الحقوق والعدالة في تونس والجزائر جاء تحت عنوان: (Appel au droit et la justice).

يتألف المنشور الأول من من 27 صفحة يتضمن عدة محاور، المحور الأول قدم فيه لمحة جغرافية وتاريخية عن الجزائر وتونس، وفيه تطرق إلى الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م، وكذلك أطوار المقاومة، والمحور الثاني تطرق فيه للحماية الفرنسية على تونس، ليتطرق في المحاور الأخرى التي جاءت تحت عنوان: "شكاوينا" لمختلف المظالم التي ترتكها الإدارة الاستعمارية في القطرين، كسياسة التمييز العنصري، وإثقال كاهل المسلمين بالضرائب المختلفة، وحرمان المسلمين من التمثيل النيابي في مختلف المجالس، وكذلك النظام القضائي جائري يعاني منه المسلمون، وغياب حرية التعبير وإنشاء الصحف وعقد الاجتماعات العامة، وفي خلاصة المنشور أقر الشيخ "صالح الشريف"، أن تونس والجزائر منذ الفتح الإسلامي شكلا دولة مستقلة تابعين للخلافة الإسلامية، وبعد أن ساعدتهم الدولة العثمانية في التخلص من الغزو الإسباني أصبحوا تابعين للخلافة العثمانية، ليخضعوا فيما بعد لنظام استعماري غاشم عبر عنه بقوله: "... لقد رأينا أيضاً كيف أنهكت فرنسا الشعب من خلال نظام تعسفي ... وكيف قوضت تعليمها ومؤسساتها عباداتها وممتلكاتها، كيف نجحت في حرمانها من جميع

حقوقها، وفي إذلالها بقوانين استثنائية، وإفسادها لمنفعة مواطنيها، واستعبادها بطريقة غير إنسانية"، لذلك قد أنت اللحظة حسب قوله: " ليطالب الناس بالعدالة ضد مضطهدهم، ويطالبون بحقوقهم في الحياة والحرية والاستقلال" (Saleh El Chérif, s d, pp 26-27).

أما المشور الآخر الذي ناشد فيه "صالح الشريف" القوى العالمية للنظر في حقوق الجزائريين والتونسيين فقد جاء في 7 صفحات، ناشد فيه أحرار العالم الذين سمّاهم بالليبراليين المساعدة والتدخل لتخليص الشعبين الجزائري والتونسي من براثن الاستعمار، حيث يقول أن هدف اجتماع الشعوب المضطهدة في هذا المؤتمر هو: "طلب المساعدة من الليبراليين والمجموعات المتحاربة سواء كانت ألمانية أو إنجليزية أو روسية أو نمساوية أو مجرية أو فرنسية أو عثمانية أو أمريكية أو يابانية أو إيطالية أو صربية أو بلجيكية أو رومانية، نطلب نفس المساعدة من الدول المحايدة السويدية والنرويجية والهولندية والدانيماركية أو الإسبانية... إلخ، باختصار نطلب من العالم كله أن يحررنا من اضطهاد وقهر هؤلاء الظالمين للبشرية..." (Saleh El Chérif, 1917, p04).

ويؤكد "صالح الشريف" إنه مثلما اتفقت قوى الوفاق والولايات المتحدة الأمريكية أن تمنح الاستقلال لبعض الشعوب بعد نهاية الحرب، فعلمها كذلك النظر في حقوق الشعوب الإسلامية المستعمرة التي استعمرت أغلبها قبل بداية الحرب" (Saleh El Chérif, 1917, p 06).

إن القراءة المتأنية لمشوري الشيخ في مؤتمري "ستوكولهم" تجعلنا نستنتج أن "صالح الشريف" طرح فكرة الاستقلال بشكل مباشر وواضح من نظام استعماري ظالم عرّفه قائلاً: "... إن الهيمنة الأجنبية هي احتلال عسكري لمنطقة ما، وإدارتها من قبل قوات الاحتلال، فهذه الأعمال تشكل الاستبداد والظلم" (Saleh El Chérif, 1917, p05). وبهذا يكون "صالح الشريف" من بين أهم النخب المغاربية طالبت بالاستقلال التام من الاستعمار الفرنسي في وقت مبكر قبل نهاية الحرب العالمية الأولى.

لعلّ أهم ما يمكن ملاحظته، هو إدراك "صالح الشريف" لتغير موازين القوى لصالح الوفاق خاصة بعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانبها، مما جعله يناشد الليبراليين من هذا المعسكر للتدخل لصالح القضية الجزائرية والتونسية، خاصة بعد أن سئم من مماطلة ألمانيا، واستيائه حتى من تركيا سيما بعد مجزرة "جمال باشا" التي طالت القوميين العرب سنة 1916، وهذا ما يظهر بكل وضوح في حديثه مع "فريد بك" الذي زاره في مارس 1917م، وعبر له عن عدم ارتياحه لأعمال "جمال باشا" وما ترتب عنها من سقوط بغداد وذلك بسبب انفصال متطوعين من القبائل العربية عن الترك لما رأوهم منهم من احتقار وسوء معاملة، وعبر له كذلك عن خوفه من ضياع فلسطين وسوريا أيضاً بسبب أعمال جمال باشا (صماري، 2021، ص 77).

وقد حاول الشيخ "صالح الشريف" أن يستفيد من مبادئ الرئيس الأمريكي "ويلسن" الداعية إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها، لذلك شكّل لجنة "اللجنة الجزائرية التونسية"، تظم كل من: "صالح الشريف، محمد الخضر حسين، محمد مزيان التلمساني، وحمدان بن علي الجزائري، ومحمد باش حمبة"، وأرسلوا برقية إلى الرئيس "ويلسن"، ناشدوه من خلالها أن يرسلوا مفوضين إلى "مؤتمر السلام" ليمثلوا الشعب الجزائري التونسي،

ويطالبوا بحقه في تقرير مصيره بكل حرية، وقبل انعقاد المؤتمر في فارساي في 18 جانفي 1919م أرسلت اللجنة عريضة طالبت من خلالها باستقلال المغرب العربي ككل (بلقاسم، 2013م، ص 103). غير أن مطالب اللجنة لم تلق الأذان الصاغية، ولم تدرج قضايا تونس والجزائر ضمن أشغال مؤتمر الصلح، غير أن مشاط اللجنة يعتبر لبنة مهمة في بلورة الوعي السياسي المغاربي بصفة عامة بين النخب الوطنية سواء في الداخل أو في المهجر.

الخلاصة:

مما تقدم يمكن القول بأن "صالح الشريف التونسي" من النخب التونسية ذات الأصول الجزائرية، كان منذ وقت مبكر مدركاً لمخاطر الاستعمار الأوروبي على الأقطار الإسلامية، معتقداً أن خلاص المسلمين يكمن في اتحادهم وتضامنهم في إطار الجامعة الإسلامية، لذلك انخرط في مطلع القرن في حركة الجامعة الإسلامية سواء من خلال نشاطه الفكري والثقافي في دمشق، أو من خلال الجمعيات التي أسسها رفقة "إسماعيل الصفايحي" في الأستانة، ونظراً لحماس الشيخ الجهادي ونفوذه بين المسلمين اعتمدت عليه حكومة الاتحادين في حربها ضد إيطاليا في طرابلس الغرب سنة 1911م أين لعب دوراً كبيراً في توعية اللبيين والمغاربة بصفة عامة بمخاطر الغزو الإيطالي، والعمل على شحذ هممهم من خلال المحاضرات والدروس... إلخ.

وباندلاع الحرب العالمية الأولى 1914م كان من أول الشخصيات التي اعتمدت عليه الدولة العثمانية وألمانيا في دعايتها في العالم الإسلامي، فأوفدته الحكومة العثمانية عشية اندلاع الحرب إلى ألمانيا أين كان يلقي الدروس والخطب على الأسرى المسلمين في معسكر الهلال، ويؤلف المنشورات والكراريس الداعية إلى الجهاد، ولكن لما بدأت بوادر الهزيمة واضحة لألمانيا والدولة العثمانية، حاول أن يعتمد على نفسه وعلى الوطنيين المغاربة فأسس "لجنة استقلال تونس والمغرب" وبدأ في التواصل مع القوى الدولية الفاعلة بهدف مساعدة الأقطار المغاربية لتحرر من الاستعمار الفرنسي.

- المراجع :

- بلقاسم محمد . (2013). وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي 1910-1954م ، البصائر الجديدة: الجزائر.
- التليلي العجيلي. (2005). صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي 1876-1918م، دار الجنوب للنشر: تونس.
- التميمي عبد الجليل .(نوفمبر 1981). من أعلامنا البارزين المنسيين: الشيخ صالح الشريف التونسي، المجلة التاريخية المغاربية، (23/ 24) ص 355.
- الدلهومي نزار. (أفريل 2022م). تبلور الوعي السياسي لدى النخب التونسية في المهجر: لجنة تحرير تونس والجزائر نموذجا، المجلة التاريخية المغاربية، (1882)، ص 243.
- الدلهومي نزار. (20018). الشيخ صالح الشريف التونسي والدعاية الألمانية، دنامية الدعاية الألمانية وعمق تأثيرها على المثقفين التونسيين، دار نور للنشر: تونس.
- عبد المولى صالح الحرير. (1979). "منظمة تشكيلاتي مخصصة السرية ودورها في حركة النضال الوطني 1911-1918"، مجلة البحوث التاريخية الليبية، (1) ، ص 18.

- الساحلي حمادي . (جوان 1984). نشاط الوطنيين التونسيين في المهجر أثناء الحرب العالمية الأولى، المجلة التاريخية المغربية، (ع 33-34)، ص 184.
- صالح الشريف التونسي، كتاب مفتوح لمولاي يوسف سلطان مراكش، A.N.O.M : 9H5.6.
- صالح الشريف التونسي، مرارة الاحتلال، في: A.N.O.M : 9H5.6
- صماري بوبكر. (2021). نشاط الوطنيين المغاربة في المهجر 1908م- 1920 م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم الثالث (LMD) في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر.
- الفرجاني خالد. (2016). الدعاية الفرنسية في المغرب العربي خلال الحرب العالمية الأولى، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية: تونس.
- قرين مولود. (ماي 2022م). نشاط الوطنيين العرب والمغاربة في برلين من خلال جريدة الجهاد (1915- 1918)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، (4)، ص ص 61- 62.
- هاينة بيتر. (1985). صالح الشريف التونسي قومي من شمال إفريقيا في برلين أثناء الحرب العالمية الأولى، حوليات الجامعة التونسية، (24)، ص 103.
- نخبة من أفاضل الكتاب (1918). تاريخ حياة طيّب الذكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية وسلطان الأرباض الجزائرية، وضع برعاية نجل الفقيه الأكبر الأمير محمد سعيد، مطبعة الترقى: دمشق.
- « A.S d'une réunion algéro-tunisienne à Stamboul » In : A.N.T, SERIE : E, Carton, 550,D30 /15, 1908-1915.
- Bardin Pierre. (1979). Algériens et Tunisiens dans L'empire Ottoman de 1848-1914, éd : CNRS : Paris .
- Comité d'indépendance de L'Algérie –Tunisie, A .N.O.M : 9H5.6
- Heine. P. (1982). Sâlih ash-Sharîf at-Tûnisî, a North African nationalist in Berlin during the first world war ; In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, (33), p. 91.
- Saleh El Chérif. (1917) .Appel au droit et la justice, stockholm, 1917, p.4 , in : Z. O. M ; N° : 07-10- 007.
- Saleh El Chérif. (s.d). Les Doléances de la Tunisie et l'Algérie ; in : Z. O. M ; N° : 07-10- 007.